

الفصل الخامس :

القرآن وشخصية الرسول

١٢٠ أمر محمد - ﷺ - بأن يبلغ عن ربه ، ولم تبين له الطرق التي يتبعها في التبليغ وحماية الدعوة ، وترك له أن يتصرف بعقله وعمله وفطنته ، كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء ، وجاء الوحي مفصلاً قاطعاً في كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول ، فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي - ﷺ - قبل الوحي ، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي .^{١٢١}

○ الأستاذ الأكبر الشيخ : محمد مصطفى المراغي

obeikandi.com

موقف ، أو أزمة ، أو مأزق ، مما تعرض له رسول الله لو تعرض لها أي إنسان لسحقت شخصيته سحقاً ، ولصهرتها صهراً ، لولا أن القرآن كان بجانب الرسول مثبتاً ومقوياً ومهوناً ، ويتخذ القرآن المواقف المتعددة من الرسول حسب ما يتفق مع القضية أو المأزق أو الأزمة ، فلن يستطيع الرسول - ﷺ - أن يواصل كفاحه وجهاده وقد سيطر الإحباط أو الحزن أو اليأس على شخصيته ، فلا بد أن تكون شخصية الرسول في أوج تألقها وفي ذروة قوتها وتسام إرادتها ومضاء عزيمتها لا لكي يتغلب وينتصر على ما يعترضه ، ولكن لأن من حوله يستمدون منه القوة والإرادة والعزيمة .

والقرآن يصور تلك المراحل والمنعطفات والمنحنيات التي مرت بها شخصية الرسول خلال سني الدعوة ، ملقياً الضوء في نهاية الأنفاق المظلمة الوعرة التي يجد الرسول نفسه منفرداً وحيداً فيها ، مبدداً ما قد بداخل نفس الرسول من ألم وحزن ، منبهاً الرسول إلى وجوب المحافظة على نفسه من أن تتصدع ، وعلى شخصيته من أن تنهار ، وعلى وجدانه من أن يتزلزل ، فكم تلقى وسيتلقى الرسول الكثير من الصعوبات والعقبات ، وكم سيصادف وصادف الكثير من المأزق والأزمات ، ومع كل ذلك يجب أن تظل شخصيته صلبه كالصخر الذي تتكسر عليه نبال وسهام الحقد والكراهية من أعدائه وأعداء الله .

لذلك كان الرسول يجد في القرآن نعم العزاء ، ويجد فيه خير مدد ، وأفضل معين يعينه على أن يتحدى العالم ، ويصبر على المؤامرات ويتصدى لجيوش الظلام والكفر ، لذلك كان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار . وكانت الفترة التي قضاها الرسول في مكة ، في بداية الدعوة من أشق وأصعب الفترات التي مرت به ، فقد شعر أن الحصار قد أحكم حول الدعوة ، فهأهي الأيام والشهور تمر بدون جدوى وكل محاولاته لا تحدث النجاح أو التوفيق الذي يرجوه ، وكان الهجوم شرساً على

شخص رسول الله ، وتفنن الكفار في أنواع الإيذاء والضرر الذي يلحقونه بشخص الرسول والمسلمين . وكان الرسول يستعرض الوضع فيجده هكذا .

- حالة من الحصار المحكم والجمود في الدعوة .

- إيذاء الرسول واللعن في نبوته باتهامه تارة بالجنون وأخرى بالسحر وثالثة بأنه شاعر .

- تعرض المسلمين لصور وأنواع من الاضطهاد والتعذيب

وقد بذل الرسول جهودا جبارة لمحاولة الخروج من هذا المأزق . وامتلات نفسه بالحزن والأسى حينما لم يجد أذنا صاغية لدعوته ، ولم يقف الأمر عند هذا ، بل بدأوا يهاجمون ويحاولون القضاء عليه وعلى الدعوة وعلى المسلمين .

المرارة والألم والحسرة والحزن يحيطون بالرسول من كل جانب ، وهذا من شأنه أن يؤثر تأثيرا سيئا على نفسية الرسول ، ولنبيل ورقي وسمو شخصية الرسول فإنه لم يحزن على ما كان يحيق ويلحق به ، ولم يكن كذلك يحزن على ما يلقاه المسلمون من شدة وعنت وعذاب ، فكل هذا له أحره وثوابه عند الله . ولكن حزنه الحقيقي على هؤلاء الذين يصرون على الكفر والعصيان ، فإنهم لا يعلمون مغبة ونتيجة هذا الجحود والإلحاد ، إنه يأسى لهم ويحزن عليهم . فالأمر جد وليس بالهزل ، ليتهم يعلمون شيئا عن مصيرهم ، أوليتهم يستجيبيون لينقذوا أنفسهم وينحوا من المصير البائس . ويخرج القرآن الرسول من تلك الدوامة المهلكة والمشكلة من الحزن والبأس والإحباط . ﴿ فَلَمَّا لَكَ بِخُجِّ نَفْسِكَ عَلَيَّ أَثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف: ٦ ، والمعنى: لا تهلك نفسك-أيها الرسول الكريم - هما وغما بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين. وبسبب إعراضهم عن دعوتك ((فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)) . و((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)) .

قال الزمخشري : شبهه - سبحانه - وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما داخله من الأسف على توليهم ، برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حشرات على آثارهم ؛ ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهعا على فراقهم " ٦٥ .

هنا القرآن يهدي من غلواء الرسول ، يبطل من اندفاعه الذي قد يقوده أن يهلك نفسه حزنا ... نعم ، يعز عليك أيها الرسول عناد قومك ، ولكن ليس معنى أن هناك عقبات تحول بينك وبين تحقيق هدفك أن تقتل نفسك ، فقبل أن تجاهد هؤلاء يجب أن تجاهد الحزن واليأس والإحباط والحسرة أن يسيطروا عليك .

ويهون القرآن على رسول الله في سورة أخرى (الشعراء) مخاطبا إياه أن لا يهتم بعناد ولسف وتكبر ولجاج هؤلاء الكفار ، فهم لا يعجزون الله في شيء ، فالله قادر أن يجبرهم ويخضعهم على أن يؤمنوا بك في طرفة عين ، ولكن الله - تعالى - لا يريد ذلك ، بل يريد أن يؤمنوا بملء إرادتهم ، غير مجبرين على هذا ﴿ إِن نَّشَأ نُنزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (١) وَمَا بِأَنبِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ الشعراء : ٤ - ٥

" والمعنى : لعلك - أيها الرسول الكريم - لا تفعل ذلك ، فإضا عليك البلاع و... نا الحساب وإنك لا تستطيع هداية أحد ولكن الله - تعالى - يهدي من يشاء وإننا (إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) ومفعول المشيئة محذوف ، والمراد بالآية هنا المعجزة القاهرة التي تجعلهم لا يملكون انصرافا معها عن الإيمان ، والأعناق جمع عنق ، وقد تطلق على وجوه الناس وزعمائهم تقول : جاءني عنق من الناس : أي جماعة منهم أو من رؤسائهم والمقدمير فيهم والمعنى لا - ... يا محمد لعدم إيمان كفار مكة بك . فإننا إن نشأ إيمانهم ، نزل عليهم آية ملجئة لهم على الإيمان . تجعلهم ينقادون له ويدخلون فيه دخولا ملرما

٦٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - د . محمد سيد طنطاوي - صفحة (٤٧٠)

لهم ، ولكننا لا نفعل ذلك ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن يكون دخول الناس في الإيمان عن طريق الاختيار والرغبة وليس عن طريق الإلجاء والقسر " ٦٦ .

٥ رعاية القرآن للنبي .

قد يظن ظان أن النبي له طبيعة تجعله فوق مشاعر الناس العاديين، أو لديه من المناعة والقوة أن لا يخضع لما يخضع له الناس من عواطف وأحاسيس ، وأنه ليس في حاجة إلى تعليم أو توجيه أو إرشاد وتقويم ، وأن الأمور كلها بالنسبة له واضحة لا لبس فيها ، وأن الأزمات والمآزق لا تلبث أمامه إلا دقائق أو ثوان حتى يصل فيها إلى قرار هو الحق كل الحق ، وأن المعجزات والأمور الخارقة طوع بنانه يريدتها متى يشاء ، وأن هناك أمورا كثيرة مسخرة لإرادته وطلبه ، وأنه لا يفكر وجهده التفكير ، ولا تمتلكه الحيرة ، وأنه لا يحاول أن يجد مخرجا للمآزق قد يجد نفسه فيه ، أو حلا للأزمة تحدى به .

كل تلك الطنون غير صحيحة . وربما لم يفهم النبوة الفهم الحق سوى الصحابة الأولون الذين عاشوا وتعايشوا مع النبي واختلطوا به وامتزجوا فيه وسبروا غور شخصيته ، فهم يدركون أنه بشر مثلهم ، وأن بعض أرائه – من منطلق بشريته – قد لا تصادف الحق ، لذلك كانوا يسألونه فيما يقوله ويقرره أعن وحي أم عن رأى ومشورة ، فإذا قال إنه الوحي كانوا لا يناقشونه ، وإنما هي الطاعة المطلقة أما إذا كان القرار عن رأي فكانوا يناقشونه ويراجعونه وقد يخالفونه ، وكان لشدة نواضعه ينفذ الأمر الذي قالوا به حينما يتبن له وجه الصواب .

هذا موقف الصحابة من النبي ، تارة يتعاملون معه من منطلق أنه نبي طالما يحدثهم عن وحي أوحي له ، وتارة يتعاملون معه أنه بشر طالما الأمر خارج الوحي ، هنا الحقيقتان منفصلتان ، حقيقة البشرية وحقيقة النبوة ولكل مقام مقال ، ولكن الأمر مع القرآن مختلف ، فالقرآن لا يتعامل إلا مع النبي ، بل وصف

النبي لا يقوم ولا يتضح إلا من خلال علاقة النبي بالقرآن ، ولكن أيعني هذا أن القرآن لا يعترف ولا يقر صفة البشرية ولا يعتد إلا بالنبوة ؟ كيف ذلك وعين الوجود هي البشرية ، والنبوة طارئة على تلك الصفة ؟ .

ليس هناك تعارض إذا عرفنا أن هناك حقيقة بشرية أو حقيقة إنسانية وحقيقة قرآنية ، وأنه يجب ان تتفق وتتوافق الحقيقة الإنسانية الحقيقة القرآنية وأنه يجب ألا يكون هناك تعارض أو تصادم بين الاثنين .

○ الحقيقة الإنسانية والحقيقة القرآنية .

حقيقة الشيء : هو الشيء كما خلقه الله ، بدون زيادة أو نقصان ، بدون تغيير أو تحويل أو تبديل .

وكثيرا ما تضيع أو تطمس أو تبدل أو تغير حقائق الأشياء عندنا نحن البشر وهذا راجع إلى الجهل أو الحب أو الكره .

فالجهد نوع من الانفصال أو الابتعاد المتعمد أو غير المتعمد عن الشيء وكان هذا الشيء غير موجود بالنسبة للجاهل ، فهو ليس في دائرة وعيه أو في إطار اهتماماته أو في نطاق حواسه المدركة .

والحب نوع من الارتقاء والسمو والارتفاع بالشيء ، وقد يصل الأمر في أحيان كثيرة إلى تقديسه ، وهو في حقيقته غير مقدس ، وبذلك أخرجت الشيء عن حقيقته .

والكره نوع من التحقير والضعف والتدني ، وبذلك تكون قد بخست الشيء وظلمته وبددت الكثير من سماته وصفاته .

وحقيقة الشيء إما أن نصل إليها بجهد بشري محض ، بعد أعمال العقل وتصريف الفكر في أوجه كثيرة وإما أن نصل إليها من خلال وبمساعدة وإرشاد الوحي الإلهي ، والحقائق التي يصل إليها الإنسان بعقله تعد حقائق نسبية ، أو لنقل حقائق متواضعة تواضع العقل البشري ، تقبل النقاش والجدل ، أما حقائق الوحي

الإلهي فهي حقائق مطلقة لا تقبل النقاش أو الجدل ؛ وذلك لوضوحها وبساطتها وعدم تغييرها أو تبديلها .

○ حقيقة النبي

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَجِدُهُ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الكهف الآية ١١٠ فالنبي بشر ، بل النبوة محصورة في البشرية أو مقصورة عليها ، وتلك البشرية ليست شيئاً غامضاً ، وبالنسبة للنبي نوع راق غير الذي عليه بقية البشر ، فكل ما يخضع له البشر يخضع له النبي من مرض وموت وضعف وحيرة وحزن واكتئاب وإحباط الخ ...ولكن الفارق بين البشر والنبي أنه يوحى إليه ، والإيحاء يقتضي نوعاً من التعديل في بشرية النبي ، وهذا التعديل لا يخرج عن دائرة البشرية ، فالوحي الإلهي يقتضي نوعاً من الارتقاء البشري ، والموحي إليه يستلزم نوعاً من التطهر النفسي والوجداني والعقلي حتى يتسنى له صلاحية استقبال الفيض الإلهي .

والتطهر النفسي والوجداني والعقلي يكون - عادة - من ذنب أو معصية أو خلئية ، وتلك الأشياء من لوازم أو من سمات البشرية ، فهل إذا صدر من الأنبياء - صلوات الله عليهم - مثل تلك الأشياء ، فما الميزة التي تميزهم عن بقية البشر ؟ وهل إذا صدر منهم ذلك ، هل ينال ذلك من مقامهم ومكانتهم ؟

بالطبع لا ، لأن ما من أحد صدر منه شيء من هذا إلا وسارع مستغفراً تائباً منيباً إلى الله - عز وجل - مقراً ومعتزفاً بتقصيره ، وهذا في حد ذاته - الاستغفار والتوبة والاعتراف والاقرار - ترفع من مكانة وقدر الشخص بصفة عامة والنبي بصفة خاصة ، لأن هنا لا يشغلنا أمر الذنب والمعصية ، ولكن ليشغلنا أمر التطهر وما يفعله في النفس من حض وحفز لها لترتقي في مدارج الرقي والسمو والإنسان لا يتطهر ليمحو آثار الذنب والمعصية فحسب ولكن لينتقل نقلة أعلى وأرقى مما كان عليه قبل الذنب والمعصية ، فالتطهر ليس عودة لما كان عليه

الإنسان قبل الذنب والمعصية، ولكنه يخلق الإنسان خلقاً آخر، لدية من المناعة والقدرة ما يمكنه لا أن يتحكم في طبعه البشري فحسب بل ليعلوه درجات في سبيل الكمال " احتجوا أيضا بأن الذنوب تنافي الكمال وأنها توجب التنفير، ونحو هذا من الحجج العقلية. ورد بان هذا إنما يكون من البقاء على ذلك، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، وكان يونس بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع منه ما وقع. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٥٨﴾ تَوَلَّىٰ أَنْ تَدْرِكَهُ نِيْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِۦ لِيُبْدِيَ بِالْمَرْءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٥٩﴾ فَاحْبَبْنَا رَبَّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٠﴾ القلم: ٤٨ - ٥٠ .

وهذه الحال الأخيرة بخلاف حال التقام الحوت، فإنه قال فيه ﴿فَالنَّعْمَةُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الصافات: ٤٢ فأخبر سبحانه أنه في تلك الحال مليم. والمليم هو الذي فعل ما يلام عليه، فكان حاله بعد قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ الأنبياء: ٨٧ .

أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان. والاعتبار بكمال النهاية، لا بما جرى في البداية. والأعمال بخواتمها. والله خلق الإنسان لا يعلم شيئاً، ثم علمه فنقله من حال النقص إلى الكمال. فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال. بل الاعتبار بحال الكمال، ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في حال النهاية في أكمل الأحوال.

وقد كان هذا حال الأنبياء دائماً يبادرون إلى التوبة والاستغفار عند الهفوة والقرآن شاهد عدل .

فها هو ذا لم يذكر شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار. كقول آدم وزوجه: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَّ تَقْوَىٰ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ الأعراف: ٢٣ وقول نوح ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾
 هود: ٤٧ وقول موسى ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ
 ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿١٤٥﴾ ... إلى غير ذلك " ٢٧

هنا حقيقة إنسانية لها خصائصها وأحكامها ، اعترف بها القرآن
 وأحاطها بسياج من الرعاية والاهتمام ، لا شيء إلا لتكون بداية ومنطلقا لحقيقة
 أخرى هي حقيقة النبي ، تلك الحقيقة التي أدركها محمد - ﷺ - إدراكا واضحا
 جليا لا لس ولا غموض فيه ، وأخذ على عاتقه توضيح تلك الحقيقة للمسلمين "
 وكان يمقت هذا الإكبار غير العادي لشخصه ، ويدعو إلى تجنبه ، خشية أن يؤدي
 إلى ثغرة في دين الله ينفذ منها إلى هذا الدين الحنيف ما نفذ منها من قبل إلى دين
 عيسى ﷺ مما حرح برسالته من أن تكثر رسالة الله الخالدة ، لذلك بصر
 ﷺ أمته بأمر هذه الثغرة وحذر وشدد في التحذير من أن يجرتعظيمه إلى الوقوع
 في الشرك .

دخل عليه يوما رجل يرجف خوفا ، وهم بالوقوع على قدميه ﷺ ، فقال
 له : رويدك يا هذا ! إنما بشر أنا ابن امرأة عربية كانت تأكل القديد " ٢٨ .
 نعم ، إن اختيار واجتباء واصطفاء الله - عز وجل - لأحد من البشر ليكون
 نبيا ورسولا هذا في حد ذاته يؤهله ليرتفع درجات ودرجات فوق مستوى البشر
 العاديين ، وإلا ما مبر اختيار الله له دوننا عن نغية البشر ؟
 وقد يكون للنبي بعض التميز والخصيصية والتوقير والإجلال والاحترام
 وليس هذا راجعا إلى شخصه ، ولكن إلى جلال وعظمة ووقسية المهمة التي يؤديها

٦٧- اجتهاد الرسول - الشيخ عبد الجليل شلبي - صفحة (٣٥ - ٣٠)

٦٨- اجتهاد الرسول - الشيخ عبد الجليل عيسى - صفحة (١٠ - ٩)

إنه مبلغ عن الله ، متلق عن الله ، أما شخصه فهو بشري الحقيقة ، ولا ينبغي أن تضي عليه تلك المهمة المقدسة أي شيء من القداسة ، وهنا الإشكال الذي حدث للناس ، أنهم خلطوا بين المهمة التي يؤديها النبي وبين ذاته ، وظنوا أنه طالما المهمة مقدسة فلا بد للقائم بها أن يكون معدسا ، أو على الأقل يناله شيء من التقديس أو نعامله نحن بشيء من التقديس ، ولكن هذا - كما قلنا - يخرج بالأمر عن حقيقتها ، وهذا الازدواج في النظرة إلى رسول الله لا يغير من تقديره واحترامه في نفوس المؤمنين بدينه فلم يزل هو الإنسان المصطفى وليس بالإنسان العادي كرمه ربه باختياره لأداء رسالته فكرمه المؤمنون به لما له من منزلة خاصة عند الله ، لكن من جهة أخرى من حق الله عليه وعلى المؤمنين أن يعرفوا حدود هذه المنزلة ، فلا يشركوه مع الله في درجة واحدة عن طريق إغفال المعنى الإنساني فيه .

فالرسول - ﷺ - إذا أضيف إلى الخلق كان في السماكين وكان الجميع يدب على سطح هذه الغبراء ، وإذا أضيف إلى ربه صاحب الفضل عليه كان بشرا ككل البشر خاضعا لقوة القاهر الغالب الذي اختص بالكمال وحده " ٦٩ .

○ القرآن والحقيقة الإنسانية :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُوتِيَهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِي مَا كُنْتُمْ تَقْلِمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بِمَدَّ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠] . هنا القرآن يؤكد تلك الحقيقة ، معلنا أن أول من يقرون بتلك الحقيقة هم الأنبياء أنفسهم ، ولا شيء يدفعهم أن ينكروها بل الواقع والعقل والدلائل تجعلهم لا ينكرونها ، فمن أنعم الله عليه بالكتاب والحكم والنبوة ، يكن - قبل ذلك - قد وصل إلى درجة سامية وراقية من العقل والوعي والإدراك والأمانة والإخلاص تمنعه أن ينكر تلك الحقيقة ويدعى ما هو كذب وزور

وافتراء على الله ، ولكن المنطق والعقل يقول أن هؤلاء النوعية من البشر الذين استحقوا تلك المنزلة من الفضل والعطاء بما طلبوا عليه من الخير والاستقامة والهدى والرشاد أن يكونوا أول الداعين إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الشرك به "والتعبير بقوله - تعالى - (مَا كَانَ لِشَيْءٍ) تعبير قرآني بليغ ، إذ يفيد نفي الشأن وعدم اتفاق هذا المعنى مع الحقيقة المفروضة في الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - وشيبه بهذا التعبير قوله - تعالى - (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ) ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ [سورة النساء: ٩٢] ^{٧٠}

ومع ذلك فمن الصعب أن تقنع الناس أو يقتنعوا أن النبي البشر أو البشر النبي يجوز عليه الخطأ والمعصية والذنب ... وإلا فما الفرق بينه وبينهم ، فإذا كان النبي يخطأ كما يخطئون ويدنب كما يذنبون وتصدر منه المعصية كما يحدث لهم فما الفرق هنا وما الميزة التي تميزه عنهم ؟

هنا يجب أن نوضح الحقيقة الإنسانية ، وهو أن النبي يخضع لكل ما يخضع له البشر لا فرق ولا ميزة ولا منزلة باستثناء حينما يتلبس بحالة النبوة ، ففي تلك الحالة - أو في هذا المقام - لا خطأ ولا سهو ولا ذنب ولا معصية ، فهو معصوم من قتل الله - عز وجل - فإذا زابلته حالة النبوة وخرج من هذا المقام ، فهو بشر وهذه الحقيقة الإنسانية تشمل الأنبياء جميعهم بدون استثناء " ... أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد ﷺ ، كل منهم أما أحس في نفسه بتقصير نتيجة خطأ في الرأي أو نسيان منه أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالي على أن الأنبياء بشر فحسب أن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحي جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادي ، وجاز عليهم الخطأ في الاجتهاد كما يجوز عليهم النسيان ويتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادي ، وتقوى نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شأنه وتزداد

٧٠- التفسير الوسيط للقران الكريم - د . محمد سيد طنطاوي - المجلد الثاني - صفحة (١٥٩)

شوقا إلى ذلك أكثر من الإنسان العادي لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته .

ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله ولله لوجب أن يتحقق مضمون قوله ويتنزّه عن الخطأ فعله حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . وإلا كان في رسالة الله ما لا يصح أن يكون لله الذي هو الحق منذ الأزل إلى الأبد^{٧١}

○ الحياة العقلية عند محمد ﷺ .

ولن يتسنى لنا فهم الحقيقة الإنسانية في أجلى صورها ، إلا إذا فهمنا الحياة العقلية عنده .

فلم يكن محمد يفكر كما نفكر .

ولم يكن يستخدم عقله كما نستخدم عقولنا .

فنحن نفكر متعالين عما نفكر فيه ، بمعنى أن الموضوع الذي يستوجب التفكير شيء والتفكير نفسه شيء آخر ، فالمفكر قد يغلّق على نفسه أبواب ونوافذ حجرته ويبقى مدة قد تطول وقد تقصر ، وفي النهاية يخرج من محبسه هذا متبلل الأسارير منشرح القلب ويعلن على من حوله أنه وصل إلى فكرة خاصة بالموضوع الفلاني ، وهنا قد يحدث الخطأ من جراء التعالي أو الابتعاد عن الموضوع ، لأنه قد يجرفك تيار الفكر – وكثيرا ما يجرف أصحابه – لتفكر وتمعن التفكير في موضوع لا علاقة له بما تريد التفكير فيه ؛ لأن بالتعالي هذا قد أوجدت عالمين منفصلين عن بعضهما تماما ، وهما عالم الفكر والواقع ، أو لنقل هما منفصلان وأتيت أنت لتؤكد هذا الانفصال .

ونحن نستخدم عقولنا ، ونحن منفصلون تماما عن الحقيقة الإنسانية نستخدم عقولنا بصورة تجريدية ، وكأننا كائنات عاقلة ليس لها نصيب من العاطفة أو الإحساس ، ونحاول أن نصيغ العقل بصفات الحيادية والتجرد

٧١- اجتهاد الرسول - الشيخ عبد الجليل عيسى - صفحة (٥٠ - ٥١)

والموضوعية . ونعتقد أن خير العقول هو الذي يصل إلى الحقيقة بأسرع وقت ومن أقرب طريق . رافضاً بل متبرئاً من كل ما لا يمت بالعقل بصلة . نحن نحاول أن نجعل عقولنا كالقاضي ، لا شأن ولا صلة له ولا اعتبار إلا بما يتوافر له من وقائع وأدلة وبراهين وإثباتات ، ولو شك هذا القاضي لحظة أنه يميل أو أن مشاعره وأحاسيسه تدخلت فإنه يتنحى عن الحكم . ويظن البعض أن ذلك هو أفضل وأيسر وأسهل الطرق لتصل إلى الحقيقة ، نعم ، ونظن أنه - أيضاً - من أسهل وأيسر الطرق لتقودك إلى الخطأ والضلال ؛ لأن تلك الأدلة والبراهين والشواهد والوقائع كما قد ترشد العقل إلى الحقيقة ، قد تؤدي به إلى الضلال والانحراف والزلل والرسول قد نبه إلى ذلك ، ولعله فعل ذلك ليؤكد على تلك الحقيقة الهامة والخطيرة في نفس الوقت . قال ﷺ : " إنما أنا بشر ، وأنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من نار "

حينما لا ينفصل الفكر عن الواقع ، وحينما لا يتبرأ العقل من الحقيقة الإنسانية يستحيل الفكر إلى حياة ، ويصبح العقل قوة تمد الحياة بعوامل وأسباب القوة والاستمرار والدوام .

لذلك قد نعد محمداً ﷺ رجل فكر من الطراز الأول وصاحب عقل يعمل عقله في القضايا والمعضلات والمآزق والأزمات فتحل ولا تكاد تصد أمام رجاحة وسداد عقله .

وقد نعد محمداً ﷺ رجلاً عملياً نهائياً في غير توان أو تردد أو تقاعس مساكاً بأزمة الأمور وناصبية المعضلات يقودها حيث يشاء ويصرفها كما يريد مفاجئاً الجميع بما لا يتوقعونه ولا يحتسبونه .

وإن شئت الحق فلا هو برجل الفكر ولا برجل العمل ، إنه رجل حياة والحياة أشمل وأعم من دينك الأمرين .

لأن الفكر قد يقود صاحبه إلى الضلال ، وقد يعزل الإنسان عن وعما حوله
و قد يسلمه إلى 'الحمود والتأخر بينما الحياة سرعة ونشاط وتغير وتبدل وتحول .
والعدس . قد يكون من أسباب الفوضى والارتباك والضياح إذا اعتمد على
الارتجال والتسرع ، والحياة نظام ومراحل متعاقبة وسلسلة مترابطة ومتصلة
الحلقات وكل ، حلة لا بد أن تستوفى وقتها وتأتي في حينها .

إذن كون محمد رجل حياة يجعله يأخذ ويصطفي أفضل وأجمل وأصلح ما
في الفكر وفي نفس الوقت يجعله يتجنب أسوأ ما في الفكر .

وكون محمد رجل حياة - كذلك - يجعله يأخذ ويصطفي أفضل وأجمل
وأصلح ما في العمل ويدفعه أن يتخلص مما يقود إلى الفوضى والهلاك .

تلك هي الحياة العقلية التي كان يحيها محمد ﷺ ، والتي مكنته أو سمن
من خلالها أن يدرك الحقيقة الإنسانية ، ولعل البعض يقول كيف تسنى لمحمد
إدراك الحقيقة الإنسانية كاملة ، وهناك مواقف قد عارض القرآن فيها محمدا
وخالفة في ذلك ؟ .

والرد على ذلك أن هناك ما يسمى بالحقيقة القرآنية وما يسمى بالحقيقة
الإنسانية ، وإن عجز محمد ﷺ - بنفسه - في بعض الأحيان وفي بعض الظروف
عن إدراك الحقيقة القرآنية فلا لوم عليه ؛ لأنه ليس مطالبا في كل الأحوال والأمور
أن يدرك الحقيقة القرآنية ، لأنها لو كانت في استطاعته أو هو مطالب بها لأنتفت
الحكمة من نزول الوحي .

وحيثما تتعارض الحقيقتان فكان محمد ﷺ يأخذ بالحقيقة القرآنية
ويترك الحقيقة الإنسانية ؛ لأن السيقة القرآنية هي الأولى والأجدر ، لأن كل ما هو
إنساني - حتى لو عد من الحقائق - فهو نسبي ، والنسبي يشتمل على جزء من
الحقيقة ، وليس كل الحقيقة ، ومن لديه جزء من الحقيقة - وليس كل - قد يضل
ويعوى .

ومن أجل هذا لم يغضب الله - عز وجل - ولم يعاقب على أخذ الرسول والمسلمين في بعض الأحيان بالحقبة الإنسانية ، ولكنه أرشدهم ونبههم - في رفق ولين ورحمة ، معلنا الصفع والغفران - إلى الحقبة القرآنية . وذلك لأن الحقائق القرآنية فوق العقل بعيدا عن متناوله ، وأن يصل الرسول والمسلمون إلى حقيقة إنسانية هذا في حد ذاته شيء طيب ولا عبار عليه ولا يستدعي اللوم والعتاب ، طالما لم تظهر بعد الحقبة القرآنية . أما وقد ظهرت الحقبة القرآنية وأعلنت ، فلم تعد الحقبة الإنسانية بالشيء الطيب ، فالحقبة القرآنية هي الأولى بالتقديم - كما قلنا - بل يجب ان تقدم ويخلق الباب من خلفها كي لا يكون هناك إلا الحقبة القرآنية .

الغريب والعجيب أن القرآن لم يضرب صفحا عن الحقائق الإنسانية التي صدرت عن الرسول والمسلمين ، لم يكتف بدكر الحقبة القرآنية وإنما ذكر الحقبة الإنسانية ؛ ليؤكد على إنسانية الرسول وبشريته ، وقد كان القرآن في غنى عن ذكر الحقبة الإنسانية طالما هي معارضة ومخالفة للحقيقة القرآنية ، بل مدانة في بعض الأحيان ، فيكفي أن يذكر الصواب أمام المخطيء ليعرف خطأه ، ولا داعي لذكر الخطأ ، ولا سيما وأن هذا يتم في قرآن يتلى ويتعبد به أثناء الليل وأطراف النبار ، ولكن ما فعله الرسول ليس خطأ ، وإنما - كما قلنا - حقيقة إنسانية تتفق مع طبيعة وفترة وجبلة الإنسان ، لا يجد الإنسان أي غضاة أن تذكر على الملأ وأن يؤكد بها القرآن .

وهنا قد يثور سؤال خاص بمشاعر النبي ، ألم يكن يشعر بحرج وهو يتلو أو يسمع القرآن يتلى بتلك الآيات الكريمة التي عاتبته أو لامته أو خالف القرآن فيها أفعال وتصرفات النبي ؟ .

والإجابة ، أن الرسول لم يشعر بأي حرج من هذا الأمر . وهذا راجع إلى

أميرين :

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ تَوَلَّا كَيْتَبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴿الأنفال: ٦٧ - ٦٨﴾

٢- استغفاره له بد الله بن أبي ، نزل قوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ التوبة: ٨٠

٣- حينما حرم على نفسه ما أحله الله . نزل قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا
أَمَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ
أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ التحريم: ١ - ٢ .

٤- انصرافه عن الصاحبي (عبد الله بن أم مكتوم) نزل قوله تعالى ﴿عَسَى وَتَوَكَّلْ
﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّاهُ يَنْزِكُ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَّا
مَنْ أَسْفَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾
وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾﴾ عس: ١ - ١٠ .

٥- حينما أذن للبعض في التخلف عن غزوة (تبوك) ، نزل قوله تعالى
﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكاذِبِينَ ﴿١٣﴾﴾ التوبة: ٤٣

٥- حينما خشى أن يعلن زواجه من (زينب بنت جحش) نزل قوله تعالى:
﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ
تُخْشَى فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ مَا
كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب: ٣٧ - ٣٨

٦- تمني الرسول أن يجري على يديه بعض الآيات التي طلبها المشركون كشرط لإيمانهم ، نزل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٧١﴾ الأنعام: ٧-٨٠ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ الأنعام: ٢٧ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِحَدُوثِهِمْ ﴿٧٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ تَصْرَعُونَ وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَيَّاتٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٥﴾ الأنعام: ٢٣ - ٣٥

٧- حينما عرض عليه كفار مكة أن يأتي بقرآن غير هذا ليس فيه سب لآلئهم هم عليه السلام أن يدع آلتهم ظاهرا ، فانزل الله تعالى قوله ﴿ فَلَمَّا تَأْرَكَ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبُكَ بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ هود: ١٢ .

٨- حينما طلب كفار مكة أن يمس آلتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدث نفسه بذلك ، فانزل الله تعالى ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰ إِلَيْكَ لِتُفْتَرَىٰ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَأَتَّخَذُوكَ حِلِيًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبْسِنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَتِيًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٤ .

٩- قال رسول الله ﷺ بعد (أحد) حينما رأى تمخيل الكفار بعمه (حمزة) وبالمسلمين : ((اللهم ألعن أبا سفيان ، اللهم ألعن الحارث بن هشام ، اللهم ألعن سهيل بن عمرو ، اللهم ألعن صفوان بن أمية)) . فتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يجزيهم على فعلتهم هذه شر أنواع الجزاء وهو أن يلعنهم

ويسجل عليهم سخطه . نزل قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١٢٨) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٢٨ - ١٢٩ .

○ الحقيقة الإنسانية التي وافقتها الحقيقة القرآنية .

فقد سنى الرسول ﷺ أن يستقبل الكعبة في صلاته ، لقد كان يصلى وهو بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلما هاجر إلى المدينة ولم يكن الجمع بينهما صلى إلى بيت المقدس ، ويعلل رغبة الرسول في التوجه إلى الكعبة في الصلاة بانها قنطرة أبيه إبراهيم وقد حاء داعيا إلى إحياء ملته وتحديد دعوته ، والتوجه إليها أدعى إلى إيمان العرب سريعا ، وهم نواة الدين وأساس الدعوة ، فانزل الله تعالى ﴿ قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٤